Middle East Journal of Humanities and Cultural Studies
Homepage: http://meijournals.com/ar/index.php/mejljs/index
ISSN: 2710-2238 (PRINT)
ISSN: 2788-4686 (ONLINE)
مجلة الشرق الأوسط
للعلوم الإنسانية والثقافية

الموت والخلود في شعر الخنساء

م.م مروه عبد الباسط حميد
كلية الحكمة الجامعة الاهلية، بغداد
البريد الالكتروني marwah.abd@hiuc.edu.iq
أ.م.د منذر رديف داود
كلية الحكمة الجامعة الاهلية، بغداد
البريد الالكتروني monther.radeef@hiuc.edu.iq

استلام البحث: 18/05/2022 **مراجعة البحث**: 12/08/2022 **قبول البحث**:15/08/2022

ملخص الدراسة:

الإنسان ابن البيئة التي يولد و يعيش فيها، فالعرب عاشوا بالنظام القبلي، و القبيلة عندهم تتألف من ثلاث طبقات هم: أبناؤها و العبيد و الموالي، يحكمهم قانون اجتماعي واحد يتلخص بكلمة "المروءة"، و يتمتع هذا المجتمع بصفات كثيرة منها فصاحة اللسان وجسارة القلب والعزة والإباء و الشجاعة . في هذا المجتمع نشأت الشاعرة الخنساء، التي سُميت تماضر، و انتسب إلى سُراة سُليم، لكنها اشتهرت بلقبها الخنساء أكثر من اسمها، عُرفت بالشعر و الجمال الأخاذ، فكانت شاعرة قوية حرة بالإضافة لجمالها الرائع، إلا أن الشعراء لم يتجرؤوا على التغزل بها، لما تتمتع به من منزلة رفيعة في قومها فأبوها كان من سادة القوم . و يعتبر مقتل كلّ من أخويها معاوية ثم تلاه صخر بداية نشأتها الشعرية لما كان يتمتع به صخر من صفات بارزة، فأكثرت من قول الشعر فيه، فلم يكن هناك امرأة أشعر منها. فالنابغة الذبياني كان من أشد المعجبين بشعرها ، و نافست الشعراء الفحول كأمثال حسان بن ثابت . كان الرثاء هو الغرض الأبرز الذي خاضت به الخنساء في شعرها و يمر رثاؤها بمراحل ثلاث: البكاء و العويل ثم الثناء على الميت ثم العزاء و حتمية الأقدار. كما كان لزوجها نصيب من مراثيها في قصيدة لا تعدّ من أجودهم، و لا يظهر حزنها المرير عليه، ربما لأنها لم تكن زوجته الوحيدة، و ربما لأنها كانت في بدايتها و لمّا تصل إلى قمة الشاعرية، و مع فقد أخويها معاوية ثم صخر تغيرت نظرتها للموت فأدركت أنه المصير الذي لا مفر منه، و رغم تلاحق المصائب عليها إلا أن أعظمها تأثيرا في نفسها هو موت أخيها صخر، فظلت تندبه أربعين عاما. و مع دخولها الإسلام تسرب النفَس الإسلامي إلى شعرها و قد فهمت فلسفة الموت، و عودة النفْس إلى بارئها، فتبدل حزنها على أهلها، فلم يعد بسبب الفقد بل لأنهم لم يتزودوا بزاد الآخرة، و حلت النظرة التأملية بدل النظرة السوداوية في شعرها، و حوّلت تدبرها و تأملها بحقيقة الموت إلى قصائد تضعنا أمام شخصية الشاعرة ذاتها بأحاسيسها و مشاعرها ، فتجربتها الشعرية لم تكن وليدة المواقف بل كانت نتيجة صراع طويل مع الألم و القلق، تصبّه بقوالبها الشعرية فالشاعر الحقّ يتمتع بذاكرة تحتفظ بأدق الملاحظات، فتعمل على إعادة خلق التجربة، لتعيد صياغة الأفكار و العواطف المختزنة و تقدم للمتلقي حضوره الفعلي و الذهني . و قد عاشت الخنساء الحالة الشعورية فتأججت مشاعر عارمة في نفسها، لتنفثها في شعرها فيحدث ذلك أثراً عظيما في نفس السامع ، و هذا الأثر الذي يُترك في المتلقي تُقاس شاعرية الشاعر، فيدخل المتلقي بعملية الإبداع بطريقين، الأول دفع المبدع للنظم و تذوق شعره، و الثاني فك مغالق النص و فهمه العميق.

الكلمات المفتاحية: الموت، الخلود، الخنساء، البكاء، الرِّثاء، حتمية الأقدار

المقدمة

الإنسان ابن البيئة التي يولد و يعيش فيها، فالعرب عاشوا بالنظام القبلي، و القبيلة عندهم تتألف من ثلاث طبقات هم: أبناؤها و العبيد و الموالي، يحكمهم قانون اجتماعي واحد يتلخص بكلمة "المروءة"، و يتمتع هذا المجتمع بصفات كثيرة منها فصاحة اللسان وجسارة القلب والعزة والإباء و الشجاعة . في هذا المجتمع نشأت الشاعرة الخنساء، التي سُميت تماضر، و انتسب إلى سُراة سُليم، لكنها اشتهرت بلقبها الخنساء أكثر من اسمها، عُرفت بالشعر و الجمال الأخاذ، فكانت شاعرة قوية حرة بالإضافة لجمالها الرائع، إلا أن الشعراء لم يتجرؤوا على التغزل بها، لما تتمتع به من منزلة رفيعة في قومها فأبوها كان من سادة القوم .

إشكالية البحث:

شعر الخنساء اختصر على رثاء أخويها هل تبحث عن خلود أخويها حسب القيم الجاهلية؟ وهل تغيرت نظرتها في الخلود عندما أسلمت ؟ وكذلك تجربة الموت وظهور هذا التغير في شعرها.

منهج البحث:

يعتمد البحث المنهج التحليلي الفني بالاعتماد على أسلوبية الانزياح في ضوء عناصر الخطاب الأساسية (المخاطِب) و(المخاطَب)،و (الخطاب).

مخطط البحث:

اقتضت خطة البحث تقسيمه الى المقدمة وهي تحتوي على خلفية البحث، وتحديد مشكلته ، وأهدافه، ومنهجه ، وخطواته .

المبحث الأول ويشمل: نبذة تعريفية عن الخنساء ولقبها وصفاتها ونشأتها الشعرية ومنزلتها في الشعر ونقدها للشعر وبراعة المرأة في شعر الرثاء .

المبحث الثاني احتوى: الموت والخلود في شعر رثاء الخنساء

الخاتمة: تضمنت أهم نتائج البحث .

التمهيد:

البيئة هي: الزمان والمكان وطبيعة الناس فيهما، يتفاعل كل منهم مع أخيه فيؤثر فيه ويتأثر به، وتتضح شخصية الإنسان بوضوح بيئته، وخصوصًا أولئك الذين طواهم التاريخ، ولم نستطع أن نعرف إلا مظاهر بدأت في سلوكهم أو أقوالهم، والخنساء واحدة من هؤلاء، فقد تبين كيف أنها ولدت قبيل الإسلام وأدركته وعاشت فيه، نعرف عنها ولا عن أوصافها شيئاً، إلا حين تعرض لها "دريد بن الصمة" طالبًا الزواج منها، وعندها فقط التفتنا إلى أنها فاتنة جميلة، أسر جمالها فارس من مغاوير العرب الذين ملأ ذكرهم الآفاق . وتتألف القبيلة في هذا الوقت من ثلاث طبقات:

<u>أبناؤها</u> :الذين يربط بينهم الدم والنسب، وعليه ينهض القبيلة وترتفع، والعبيد المجلوبون من البلاد الأجنبية المجاورة وخصوصا الحبشة، والموالي وهم عتقاء القبيلة.وتخضع القبيلة بطبقاتها الثلاثة لقانون اجتماعي عام يتلخص في كلمة واحدة هي (المروءة)، والتي منها تتوالد كل أخلاقهم الاجتماعية. والخنساء البدوية كانت تقطن في بيئة نضحت على أهلها خصائص ميزتهم بها، كان من أهمها فصاحة اللسان وجسارة القلب والعزة والإباء، فقد اشتهر أهل نجد بالشجاعة والبلاغة وقد ذهبوا في الشعر كل مذهب.

ومما لا شك فيه أن الشعر هو متنفس كبير لأولئك الذين يتأثرون تأثرا بالغًا بما يطرأ على نفوسهم من تقلبات سواء كانت خيرا أم شرا، فتنطلق من وجدانهم مشاعر عارمة تفيض، تكون أحيانًا بمعانٍ سامية، وأحيانًا أخرى بقسوة متناهية وثورة جامحة، فتلك الأحاسيس التي تملأ الوجدان حين انفلات اللسان بالتعبير عنها يخرج لنا المنتج الحقيقي لذلك الفن الجميل (الشعر)، والغرائز التي تُختزن في قلب الشاعر مدةً ثمّ تثور فجأة هي المكوّنة الفعليّة لتلك الأفكار التي تجعل للشعر أثر السحر .

إن قضية الموت وما يتبعها عظيمة الخطر والأثر على الحالة النفسية التي تنطلق منها الشعراء، فلها تأثير كبير على نفسية الشاعر، فهي حالة ملحّة تدفع الشاعر لنظم الشعر للتخلّص من ركام العذاب النفسيّ، ولا تغفل في ذات الوقت حال المخاطب بحيث يكون شعره ملائمًا لما في نفس السامع، وهما أمران يصعب الجمع بينهما .

ويعد موضوع الموت والخلود من الأغراض التي كتب فيها الشعراء الجاهليين ومنهم الخنساء قبل الإسلام، فقد وُجدت في شعر بعض شعراء الجاهلية نزعة إلى التفكير في الحياة والموت، وقد بدا من بعض شعر الجاهليين بأن لهم اعتقاد بالله سبحانه وتعالي ويوم القيامة والحساب؛ ويرجع ذلك إلى تأثير النصرانية وتعاليمها على الشعراء الجاهلية.

ثم تطور الدافع لهذا الغرض – الموت والخلود– من مجرد تأثر بالنصرانية واقتباس من عقائدها أو ما بقي من ملة إبراهيم الخليل إلى عقيدة راسخة في نفوس المسلمين عامة والشعراء خاصة نرى تأثيرها في نتاجهم الأدبي، فقد أثر الإسلام في شعر الخنساء تأثيرًا جليًا واضحًا، فُيرى في شعرها صبرها على قتل أخويها وأبنائها بعد الإسلام، وإن واصلت بكاءها وحزنها بعد الإسلام على سادات من مضر بسبب هلاكهم في الجاهلية .

المبحث الأول:

نبذة تعريفية عن الخنساء

الخنساء: هي: الصحابية الشهيرة تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد من سراة سُليم، كانت (رضي الله عنها) من شواعر العرب المشهود لهن بالتجويد والتقدم، وقد كانت من أجمل نساء العرب وأفصحهن، نشأت عزيزة حرة، لاتفتات عشيرتها عليها بأمر(1).

لقبها:الخنساء، لقبت تشبيهًا لها بالظبية؛ لأن الخنس من صفات الظباء، وهو تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع في الأرنبة، ويقال لها خناس على سبيل التمليح(2) .

صفاتها: يمكن أن نرسم صورة للخنساء بالقدر الذي يمكننا من أن نصفها –واثقين– بأنها كانت ذات حسب وجاه وشرف. وأنها كانت ذات جمال أّخاذ، وتقاسيم متناسقة... لذا شبهوها بالبقرة الوحشية. والعربي إذا تغزل في الأنثى، وأراد التعبير عن جمالها، شبهها بذلك. لكن هذا التشبيه لتماضر لم يكن في معرض غزل طارئ، وإنما هو تشبيه صار لها لقباً غالبا على اسمها وكنيتها.كانت ذات أمر بالغ، وجاذبية طاغية، أطلقت الألسن فواجهتها بحقيقتها، فعرفت ما تملك في يدها من سلاح، كما عرفت قيمة ذلك السلاح. لم يكن في حياتها ما يقلقها، ويقض مضجعها – شأن مثيلاتها في أول العمر، ومقتبل الشباب–

(1) انظر: ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ط دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، سنة 1415هـ – 1994 م ، 7 / 42، رقم 6787 ، وابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي محمد البجاوي، ط دار الجيل، بيروت ، الطبعة: الأولى، 1412 هـ – 1992 م، 4 / 1798 . وخير الدين الزركلي، الأعلام ، ط دار العلم للملايين ، الطبعة: الخامسة عشر – أيار / مايو 2002 م، 2 / 86 .

(2) انظر: زينب بنت علي العاملي، الدر المنثور في طبقات ربات الخدور، ط المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، الطبعة: الأولى، 1312 هـ ، 1 / 109 .

فقد أضفى عليها مركز قبيلتها، وكانت أسرتها، وسيادة أبيها كل أسباب الطمأنينة، كما قد أفاض عليها جمالها وحسنها ما محا من حياتها القلق، وأزال عنها الاضطراب.

كانت الخنساء هي العاقلة الحازمة، حتى لقد عدت من شهيرات النساء.. لا يجرؤ أحد عن التهجم عليها أو التحدث عنها.. لذا لم يتكلم عنها أحد، ولم يتفوه شاعر بشيء يمكن أن ينقل وتحمله الألسن، عرفت بحرية الرأي وقوة الشخصية. ظهر ذلك أو ما ظهر حين تقدم لخطبتها "دريد بن الصمة"، بعد أن أناخ "بنو جشم" رواحلهم، طلباً للراحة من عناء السفر الطويل إلى مكة في إبان الموسم، وكان منزلهم في بادية الحجاز قريباً من منازل بني سليم(3).

نشأتها الشعرية:

كانت الخنساء تقول في أول أمرها البيتين أو الثلاثة حتى قتل أخوها شقيقها معاوية بن عمرو، وبعد عامين قتل أخوها لأبيها صخر، وكان أحبهما إليها، لأنه كان حليمًا جوادًا محبوبًا في العشيرة، وكان غزا بني أسد فطعنه أبو ثور الأسدي طعنة مرض منها حولًا، ثم مات، فلما قتل أخواها أكثرت من الشعر أكثرت من الشعر وأجادت، وأُنسِيَتْ بهما من كان قبلهما وأكثرت المراثي(4)، وأجود مراثيها ما خلط فيه مدح بتفجيع، فإنه يكاد يكون الغاية من كلام المخلوقين، كرائيتها السائرة مسير الأمثال:

وإنّ صَخْرًا لمِقْدامٌ إذا رَكِبوا ... وإنّ صَخْرًا إذا جاعوا لَعَقّارُ
وإنّ صَخرًا لَتَأْتَمّ الهُداةُ بِهِ ... كَأنّهُ عَلَمٌ في رأسِهِ نارُ
جلدٌ جميلُ المحيًّا كاملٌ ورعٌ ... وَللحروبِ غداةَ الرَّوعِ مسعارُ
حَمّالُ ألوِيَةٍ هَبّاطُ أودِيَةٍ ... شَهّادُ أنْدِيَةٍ للجَيشِ جرّارُ
فقلتُ لما رأيتُ الدّهرَ ليسَ لَهُ ... معاتبٌ وحدهُ يسدي وَنيَّارُ
لقدْ نعى ابنُ نهيكٍ لي أخاَ ثقةٍ ... كانتْ ترجَّمُ عنهُ قبلُ أخبارُ (5)

<u>**منزلتها في الشعر:**</u>

لقد تواترت أقوال كثير من الأدباء وأهل الأدب والشعر على أنه لم تكن هناك امرأة أشعر من الخنساء، لا قبلها ولا بعدها، فقد كان النابغة الذبياني تُضرب له قبة حمراء، فيجلس لشعراء العرب بعكاظ على كرسي ليفاضل ويحكم بينهم، فينشدونه فيفضل من يرى تفضيله، فأنشدته الخنساء فأُعْجِبَ بشعرها، وقال: لولا أن أبا بصير (الأعشى) أنشدني آنفًا لفضلتك على شعراء الموسم(6).

نقدها للشعر:

النظر في نقد الخنساء للشعر يرى أنه أمام موهبة شعرية فريدة وقامة علمية كبيرة، خاصة في اختيار الألفاظ والأساليب ونقد الرديء منها، فيرى أن حسان بن ثابت –رضي الله عنه– قد اغتاظ من تفضيل النابغة الذبياني للأعشى على غيره من الشعراء في أحد المواسم، فقال للنابغة: أنا أشعر منك ومن أبيك، فقال له النابغة يا ابن أخي، أنت لا تحسن أن تقول:

---

(3)انظر : ابن عبد البر ، الاستيعاب في معرفة الأصحاب 4 / 1838 ، وعبد القادر بن عمر البغدادي ، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، 1 / 395 . بتصرف .

(4) ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة ، تحقيق: علي محمد البجاوي، ط دار الجيل – بيروت ، الطبعة: الأولى، 1412هـ ، 7 / 614 .

(5) ديوان الخنساء، تماضر بنت عمرو السلمية والمعروفة بـ الخنساء(575 م – 24 هـ / 645 م)، اعتنى به وشرحه: حمدو طمّاس، ط دار المعرفة، بيروت – لبنان ، الطبعة الثانية، 1425 هـ – 2004 م ، ص 46 .

(6) أبو عباس أحمد بن عبد المؤمن بن موسى القَيْسي الشُّريشي (المتوفى: 619 هـ)، ط دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة الثانية، 2006 م – 1427 هـ ، 3 / 168 .

فإنكَ كالليلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي   وإن خِلْتُ أَن المُنْتأَى عنكَ واسِعُ(7)

ثم قال للخنساء – وكانت في المجلس– أنشديه، فأنشدته، فقال: ما رأيت امرأة أشعر منك، قالت: ولا فحلاً، فقال حسان: أنا والله أشعر منكِ ومن أبيكِ حيث أقول:

لنا الجَفَناتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحَى   وأسيافُنا يَقْطُرْنَ من نَجْدةٍ دمَا
ولَدْنا بني العَنْقاءِ وابنَـيْ مُحَرِّقٍ   فأَكْرِمْ بنا خالاً وأَكْرِمْ بنا ابنَمَا(8)

فقالت الخنساء: ضعفت افتخارك وأنزرته في ثمانية مواضع، قال: وكيف؟! قالت: قلتَ: لنا الجفنات، والجفنات ما دون العشْر، فقللت العدد، ولو قلت: الجفان، لكان أكثر، وقلت: الغر، والغرة البياض في الجبهة، ولو قلت: البيض لكان أكثر، وقلت: يلمعن، واللمع شيء يأتي بعد الشيء، ولو قلت: يُشْرِقن لكان أكثر؛ لأن الإشراق أكثر من اللمعان، وقلت: بالضحى، ولو قلت: بالدُّجَى لكان أكثر في المديح؛ لأن الضيف بالليل أكثر طروقًا، وقلت: أسيافنا، والأسياف دون العَشرة، ولو قلت: سيوفنا لكان أكثر، وقلت: يقطرن، فدللت على قلة القتل، ولو قلت: يَسِلن لكان أكثر؛ لانصباب الدم، وقلت: دمًا، والدماء أكثر من الدم، وفخرت بمن وَلَدْت ولم تَفْخر بمن وَلَدَكَ!! فسكت حسان ولم يحر جوابًا، وقام منكسرًا منقطعًا(9) . وقد سئل جرير(10)، من أشعر الناس؟ فقال: أنا لولا الخنساء، قيل بم فضلتك؟ قال بقولها:

إن الزمان وما يفنى له عجب   أبقى لنا ذَنبًا واستؤصل الراس
إن الجديدين في طول اختلافهما   لا يفسدان ولكن يفسد الناس

براعة المرأة العربية في شعر الرثاء:

إن براعة الخنساء في شعر الرثاء على جهة الخصوص لم تكن مستغربة عند الباحثين، فقد أجمع كثير من الباحثين على براعة المرأة العربية في هذا الميدان، وإجادتها فيه حتى طغى على أغراضها الشعرية الأخرى. ومما لا شك فيه أن مشاركة المرأة في غرض الرثاء قد أسهم إسهامًا فاعلًا في إغناء ديوان العرب بهذا اللون الشعري المتميز، وربما هذا متأثر من طبيعة المرأة العربية الوجدانية بوصفها أكثر ميلًا للحزن والأسى والبكاء؛ على عكس الرجل الذي فرضت عليه الأعراف الاجتماعية أن يتسم بالصبر والجلادة والتحمل، ولكون العرب كانت تُعَيِّرُ من يبكي من الرجال، قال بروكلمان: إن إظهار الحزن لم يكن يناسب رجال القبيلة كما كان لائقاً بنسائها، وخاصة الأخوات، ومن ثم بقي تعهد الرثاء الفني من مقاصدهن حتى عصر التسجيل التاريخي(11).

لذا كان من الطبيعي أن يكون الرثاء _في العصر الجاهلي _على هذه الدرجة من الكثرة، وأن يكون صادراً عن الشواعر العربيات بشكل خاص استجابة لموجات الحزن المتتابعة والممتزجة بانفعال حاد لفقد عزيز أو بطل أو فارس حتى غدا هذا بمثابة الحرفة عند بعضهن .وتعد الخنساء من أبرز الشواعر العربيات في غرض الرثاء خاصة والمتأمل في رثائها يجده يدور

(7) أبو علي الحسن بن عبد الله القيسي، إيضاح شواهد الإيضاح ، تحقيق: الدكتور محمد بن حمود الدعجاني ، ط دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى، 1408 هـ – 1987 م، 2/ 785 .

(8) السيوطي، شرح شواهد المغني ، تحقيق: أحمد ظافر كوجان ، مذيل بتعليقات: الشيخ محمد محمود ابن التلاميد التركزي الشنقيطي، ط لجنة التراث العربي ، 1386 هـ – 1966 م ، 1 / 255 .

(9) أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي، سمط اللآلي في شرح أمالي القالي ، تحقيق: عبد العزيز الميمني ، ط دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ، 2 / 55 . ومصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي (المتوفى: 1356هـ)، تاريخ آداب العرب ، ط دار الكتاب العربي ، 2 / 149.

(10) عبد القادر بن عمر البغدادي، شرح أبيات مغني اللبيب، تحقيق: عبد العزيز رباح – أحمد يوسف دقاق، ط دار المأمون للتراث، بيروت الطبعة الثانية، 2 / 193 .

(11) بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، 1 / 48 .

في ثلاث محاور رئيسة :أولهما: بكاء ونواح وعويل على الميت ويعرف هذا الضرب في شعر الرثاء بالندب . وثانيهما: يتخذ شكل الثناء على الميت وذكر فضائله وتعداد محامده ويعرف هذا الضرب في شعر الرثاء بالتأبين. وثالثهما: ويمكن أن نضيف محورا آخر تتجه فيه الشاعرة إلى التفكر في رحلة الحياة ومصير الناس وحتمية الأقدار ونزول البلاء وضعف الإنسان أمام ومصائب الزمان، وهو ما يعرف في شعر الرثاء بالعزاء (12).

المبحث الثاني:

الموت والخلود في شعر رثاء الخنساء

نماذج من شعر الموت والخلود :

رثاء الخنساء لزوجها:

من المعلوم أن الحياة تهنأ لها للخنساء طويلًا، فقد تلاحقت عليها المصائب تباعًا، إذ فقدت أبيها ثم زوجها ثم أخويها معاوية فصخر، وأخيرا أبناءها الأربعة في معركة دارت رحاها في الإسلام، ولكن لاشك أن أعظمهم تأثيرًا في نفسها وأشدهم وطأة عليها هو صخر الذي ظلت تندبه أربعين سنة دون نسيان ولا سلو .

تزوجت الخنساء من مرداس بن أبي عامر السلمي، الملقب بالفيض لسخائه.. ذلك بعد مقتل صخر، وفي أثناء حدادها على أخيها وأبيها وكان مرداس إلى سخائه رجل جد وعمل لم يترك فرصة إلا اهتم بها، ليوفر لأسرته أسباب الحياة، حتى مات في إحدى مغامراته تاركاً للخنساء أربعة بنين هم: العباس، وزيد، ومعاوية، وبنتٌ اسمها عمرة .وقد اهتزت الخنساء لفقد مرداس اهتزازة، يتولد عنها قصيدة ترثيه بها.. والقصيدة – وان لم تصل إلى أغوار نفسها لتفصح عن الأسى والحزن لفراق زوج عاش معها فترة من حياتها، وسجلت له الأحداث ذكريات- إلا أنها لا تعتبر في ميزان شعرها من أحسن مراثيها فهي لا تبعد عن نهجها العام في مراثيها الترى ترددها بن الندب والتأبين، فتعدد المناقب وتذكر المآثر.

وقد حفظ لنا التراث شيئًا من مراثيها في أبيها وأخيها معاوية، في الوقت الذي لم يحتفظ لنا التاريخ إلا بمرثية واحدة ندبت بها زوجها مرداس بن أبي عامر الذي تزوجته بعد وفاة زوجها الأول رواحة بن عبد العزى (13)، وهي التي تقول فيها (14):

لمّا رأيْتُ البَدْرَ أظْلَمَ كاسِفًا ... أرَنَّ شواذٌ بَطنُهُ وسَوائِلُهْ
رنينًا وما يغني الرَّنينُ وقدْ أتى ... بموتكَ منْ نحو القريَّةِ حاملهْ
لقدْ خارَ مرداسًا على النَّاسِ قاتلهْ ... ولوْ عادهُ كنَّاتهُ وحلائلهْ
وقلنَ الأهل منْ شفاءِ ينالهُ ... وقدْ منعَ الشّفاءَ منْ هو نائلهْ
وفضَّل مرداسًا على النَّاسِ حلمهُ ... وأنْ كلُّ همٍّ همَّهُ فهو فاعلهْ
وأنْ كلُّ وادٍ يكرهُ النَّاسُ هبطهُ ... هبطتَ وماءٍ منهلٍ انتَ ناهلهْ
تركتَ بهِ ليلًا طويلًا ومنزلًا ... تَعادَى على ظَهرِ الطّريقِ عَواسِلُهْ
وسبيٍ كآرامِ الصَّريمِ تركتهُ ... خلالَ الدّيارِ مستكينًا عواطلهْ

(12) الدكتور يحيى الجبوري، الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه في بيان أنواع الرثاء وأساليبه ، انظر ص ٣١١ وما بعدها.

(13) عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، الشعر والشعراء، تحقيق: د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1401 هـ ، 1981 م.

(14) ديوان الخنساء ص 129.

وعدتَّ عليهمْ بعدَ بؤسي بأنعمٍ — فكُلّهُمُ تُعْنى بهِ وتُواصِلُهْ
متى ما تُوازِنْ ماجِدًا يُعْتَدَلْ بهِ — كما عَدّلَ الميزانَ بالكَفّ راطِلُهْ

والناظر في تلك الأبيات للخنساء حين رثت زوجها يدرك أن تجربة الموت مع الشاعرة لم تتأجج، إذ ربما فقدته في مرحلة مبكرة من حياتها الطويلة المليئة بالمآسي، حيث لا يبدو من خلال هذه الأبيات حزنها مريرًا ولا جزعها على الزوج الفقيد مؤلمًا، وإن كانت لتعتقد أن ما يسيل من مياه الشتاء على الجبل (شواذ) إنما هو بكاء على زوجها الذي رحل، إلا أن هذه الصورة لا يمكن أن تنقل إلينا مشاعر مضطرمة على ما أصابها من بلية، ولعل السبب يعود إلى أن الشاعرة لم تكن الزوجة الوحيدة للرجل فقد أشارت في البيت الثالث إلى عدة أزواج له، كما أن المرأة إذا فقدت زوجها يمكن أن تجد غيره كما يحدث كثيرًا في الجاهلية، أن، وتبقى بقية أبياتها في هذه القصيدة يغلب عليها طابع المديح الشخصي.

يبدو أن تجربة الشاعرة مع الموت لم تبلغ بعد كمال نضجها، لأنها لم تفقد أحدًا إخوانها، فإن الراحل لم يكن إلا رجلًا جمعتها به سنة الحياة، وكان يمكن أن يحل غيره محله، وقد تكون الخنساء وقتها في أول طريقها الأدبي فلم تصل بعد إلى قمة الشاعرية التي من خلالها يمكن أن تجعل أبياتها تقطر دموعًا، ولعل السبب الحقيقي يعود فعلًا إلى العمر، فإنها في الحقيقة لم تصل بعد إلى المرحلة المناسبة التي تخلق منها شاعرة كبيرة[15].

هكذا تعاملت الخنساء مع الموت في بدء حياتها، ولكنها أدركت بعد ذلك أن الموت هو الحقيقة التي لا مفر منها ولا مناص من وقوعها لكل البشر، وقد رأت الموت وحقيقته المؤلمة حينما فقدت معاوية وبعده صخرًا، فأصبح شعرها نواحًا ونشيجًا لا تهدأ ثورته، ولا يتوقف دمعه، كما في قولها [16]:

هريقي منْ دموعكِ أو افيقي — وصبرًا انْ اطقتِ ولنْ تطيقي
وقُولي إنّ خَيرَ بَني سُلَيْمٍ — وفارسهمْ بصحراءِ العقيقِ
وانّي والبكا منْ بعدِ صخرٍ — كسالكةٍ سوى قصدِ الطَّريقِ
فلا وابيكَ ما سلَّبتُ صدري — بفاحِشَةٍ أَتَيْتَ وَلا عُقُوقِ
ولكنّي وجدتُّ الصَّبرَ خيرًا — مِنَ النّعلَينِ والرّأسِ الحَليقِ
ألا هَلْ تَرْجِعَنْ لَنا اللّيالي — وايَّامٌ لنا بلوى الشَّقيقِ
لا يا لَهْفَ نَفسي بَعدَ عَيشٍ — لنا بندى المختَّمِ والمضيقِ
إذْ فينا فوارسُ كلِ هيجا — إذا فَزِعُوا وفتيانُ الخُروقِ
إذا ما الحرْبُ صَلْصَلَ ناجِذاها — وفاجاها الكماةُ لدى البروقِ
واذْ فينا معاويةُ بنُ عمرٍو — على ادماءَ كالجملِ الفنيقِ
فبَكّيهِ فَقَدْ وَلّى حَميدًا — أَصِيلَ الرّأيِ محمُودَ الصّديق
هو الرُّزءُ المبينُ لا كباسٌ — عَظيمُ الرّأيِ يَحْلُمُ بالنّعيقِ

(15) حسن سعد لطيف، تجربة الموت في شعر الخنساء بين الو اقع والمثال ، ط مجلة آداب ذي قار، الطبعة: العدد 3 ، سنة النشر: 2011م ، ص: 75 .
(16) ديوان الخنساء، ص 108 .109.

من المعلوم يقينًا أن الموت في نظر الإنسان منذ الأزل يمثل الحقيقة العظمى التي قضت على أمله في الخلود، وحطمت حلمه السرمدي في البقاء الأبدي على قيد الحياة، وقد عبرت الشاعرة عن هذه الحقيقة بعد ذلك حين وصلت في رحلتها مع الموت إلى نهاية المطاف في كثير من قصائدها، ويلاحظ القارئ في كل بيت من أبيات هذه القصيدة أن حقيقة الموت وانقضاء الأجل مع الأيام شيئًا فشيئًا تتمثل أمام عيني الشاعرة .

لقد تلاحقت على الخنساء المصائب تباعًا، فهي امرأة لم تهنأ لها الحياة طويلًا، إذ فقدت أبيها ثم زوجها ثم أخويها معاوية فصخر، وأخيرًا أبناءها الأربعة في معركة دارت رحاها في الإسلام، ولكن لاشك أن أعظمهم تأثيرًا في نفسها وأشدهم وطأة عليها هو أخوها صخر الذي ظلت تندبه أربعين سنة دون نسيان ولا سلو. ولعل هذا الخطاب الموجه إلى الموت ما هو إلا إصرار على إيجاد فسحة من الأمل لعل الماضي أن يعود، إنها صرخة لكنها لا تلبث أن تخمد ويصيبها الخفوت، وتعود الشاعرة بعدها إلى حقيقة الأمر وتعلم أن الواقع لا يمكن أبدًا أن يكون مثاليًا، فتدعو بالسلام والرحمة للجدث الذي ضم رفات الحبيب الذي لن يعود مهما بكت ومهما أشفقت، ولذلك تقول[17]:

ما بالُ عَيْنَيْكِ مِنْها دَمْعُها سَرَبُ — أراعَها حَزَنٌ أمْ عادَها طَرَبُ
أم ذِكْرُ صَخْرٍ بُعَيْدَ النَّوْمِ هَيّجها — فالدّمْعُ منها عَلَيْهِ الدّهرَ يَنسكِبُ
يا لهفَ نَفسي على صَخرٍ إذا رَكبَتْ — خَيْلٌ لخَيْلٍ تُنادي ثمّ تَضْطَرِبُ
قدْ كانَ حصنًا شديدَ الرُّكنِ ممتنعًا — لَيثًا إذا نَزَلَ الفِتيانُ أوْ رَكِبُوا
أغَرُّ، أزْهَرُ، مِثلُ البَدرِ صُورَتُهُ، — صافٍ، عَتيقٌ، فما في وَجههِ نَدَبُ
يا فارِسَ الخَيْلِ إذْ شُدّتْ رَحائِلُها — ومُطعِمَ الجُوّعِ الهَلْكَى إذا سغبوا
كمْ منْ ضرائكَ هلاَّكٍ وَ أرملة — حلُّوا لديكَ فزالتْ عنهمُ الكربُ
سَقْيًا لقَبرِكَ من قَبرٍ ولا بَرِحَتْ — جودُ الرَّواعدِ تسقيهِ وَ تحتلبُ
مَاذَا تضمَّنَ منْ جودٍ وَ منْ كرمٍ — وَ منْ خلائقَ مَا فيهنَّ مُقتضبُ

ويبدو أن الخنساء أصبحت مؤمنة بقضاء الله وحكمته في تدبير الأمور، ولا شك أن أبياتها الأخيرة هي من نظمها في العصر الإسلامي لشيوع النفس الديني خلالها، ولو أنها أرادت أن تواجه الأمر في الجاهلية لوجدناها أكثر جزعًا واستسلامًا للقدر المحتوم الذي أصابها بكل تلك النكبات، ولكنها ذات عقل راجح ونفس مؤمنة تعلم أن الموت ليس نهاية المطاف وأن بعد هذه الحياة حياة أخرى تتلوها، وربما كان هذا الأمر هو ما كانت تخشاه حقًّا على صخر لأنه لم يمت على الإيمان ولذا فهو لم يكن قد أعد للحياة الأخرى عدتها، (فالإنسان الجاهلي . ومن خلال تصوّره للحياة . كان يدرك أنّ الله هو الخالق، ولكنه ضلّ الطريق، فأنكر البعث والحساب وظنّ أنّ الموت نهاية المطاف، وعنده ينتهي كل شيء، وتصوّر كهذا يزرع في قلب صاحبه الهلع والحزن، ويدفعه إلى الشعور بعبثية الحياة وتفاهتها، وهو يرى الأحبّة يذوبون في دنيا الفناء، وتتقطّع أوصالهم في التراب، فلا أمل ولا لقاء)(18).

هذا ما يمكن أن يتصوره شخص غير الخنساء لأنها تعلم أن النفس تعود إلى بارئها، فيعيدها كما أنشأها أول مرة، ولذلك تخشى على أهلها الذين سبقوها أن لا يكونوا قد استعدوا للموت وتزودوا من الدنيا لسفر الآخرة الطويل، ولهذا لم يعد حزنها على صخر عميقًا كما كان في السابق، بل أصبحت آمالها تتمثل في هذا التطلع إلى انقضاء الأجل واللحاق بركب الأحبة الذين سبقوها

(17) ديوان الخنساء ص 110.

(18) عباس المناصرة، مقدّمة في نظرية الشعر الإسلامي، مؤسسة الرسالة، دار النشر، الأردن 1996 م، ص 149.

إلى الآخرة، فقد أرشدتها عقليتها المؤمنة وروحها المسالمة إلى أن نهاية الإنسان فناء مؤقت وموت غير دائم، وأن مرجعه إلى خالقه الذي يعيد نشأته الأولى، وهكذا أصبحت نظرتها إلى الحياة تأملية وليست سوداوية حيث تقول(19):

ألا ما لعينكِ امْ مالها   لقدْ أخْضَلَ الدّمْعُ سِرْبالَها
أبعدَ ابنِ عمرٍ و منَ آلِ الشَّريدِ   محَلّتْ بهِ الأرْضُ أثقالَها
فآلَيْتُ آسَى على هَالِكٍ   وَأسْألُ باكِيَةً ما لهَا
لَعَمْرُ أبِيكَ، لَنِعْمَ الفَتى   تَحُشّ بهِ الحَرْبُ أجذالها
حَديدُ السّنانِ ذَليقُ اللّسانِ   يُجازي المَقارِضَ أمثالَها
هممتُ بنفسيَ كلَّ الهمومِ   فاولى لنفسيَ اولى لها
أحْمِلُ نَفسي على آلَةٍ   فإمّا عَلَيْها وإمّا لهَا
فإنْ تَصْبِرِ النّفسُ تَلقَ السّرورَ،   وإنْ تَجزَعِ النّفسُ أشقَى لها
نُهينُ النّفوسَ، وهَوْنُ النّفوس   سِ يومَ الكريهةِ ابقى لها
و نعلمُ انَّ منايا الرّجا   لِ بالغةٌ حيثُ يحلى لها
لتجرِ المنَّيةُ بعدَ الفتى م   المغادَرِ بالمَحْوِ أذْلالَها
ورَجْراجَةٍ فَوْقَها بِيضُها   علَيها المُضاعَفُ أمثالَهَا

وفي القصيدة ما يدل على إسلاميتها إذ تضمنت في أحد أبياتها آية من الذكر الحكيم في قولها(20):

فَخَرَّ الشّوامِخُ من قَتلِهِ   وزُلْزِلَتِ الأرْضُ زِلزالَها

ويمكن القول أن الشاعرة اتجهت الآن إلى شيء من التفكر والتدبر في حقيقة الموت بعد أن أصبح الدهر لها واعظًا، ولكن كم من المتعظين يمكن أن يحول هذه العظات إلى قصائد تنطق بهويته وترسم صورته وتحكي تجربته، قد لا يتأتى ذلك إلا لقلة من الناس ممن يملك الشاعرية والقدرة على تحويل رؤاه الذاتية إلى قصائد تتكلم عن نفسه وتجربته، لأنه لا يدع عقله في سبات، بل هو في صراع مستمر، تنتقل الصورة المحسوسة من واقعه المعيش إلى عقله الباطن فيترجمها بعد تحليلها واستخلاص التجارب منها إلى أبيات تشعرنا بمشاعره وتحسسنا بأحاسيسه، حتى ليتبادر إلى المتأمل في قصيدته كأنه أمام الشاعر عينه، وكأن القصيدة – بدقائقها وتفاصيلها – هي الشاعر ذاته(21).

وهكذا الخنساء إذ يجد من يتعمق في قراءة قصائدها المفعمة بالأحزان نفسه كأنه أمام صورة لامرأة ناعية، تحكي همومها بأناشيد حزينة تدفع بالمتلقي إلى عالم لا نهاية له من الطرب الممتزج بالشجن، ولكن تغيرت نظرتها القديمة إلى الموت، فبعد أن كانت تراه ماردًا جبارًا لا يفتأ يقصف بأنفس من أحبتهم، أصبحت تراه حقيقة مثالية وتجربة لا بد أن يعيشها ويمر بها كل ذي نفس، وهكذا بعد أن كان الموت في نظرها يشكل واقعًا مريرًا، أصبح الآن محطة أخيرة تقف فيها للتخلص من كل ما يثقل نفسها من أكدار الحياة.

---

(19) ديوان الخنساء ، ص 100.

(20) ديوان الخنساء ص: 101 .

(21) تجربة الموت في شعر الخنساء بين الواقع والمثال ص: 79 ، وما بعدها .

لقد أصبحت الخنساء ذات حكمة في التعامل مع الموت والحياة، وقد أفرغت لنا هذه الحكمة التي واتتها عن طريق تجاربها السابقة بهذه القصائد التي كشفت لنا جهد معاناتها الفكرية، فأبيات الحكمة تنبثق –عادة– عن ضرب من التنظير الفكري لنتائج التجربة التي تستقطب جهد المعاناة، بيد أنّ الشاعر لا يسترفد حتّى من خلال هذا المفهوم تفاصيل التجربة وحدها، وإنّما يؤول إلى قيم غدت أشبه بالبديهيات في الحياة الفكرية، فامتلكت القدرة على منح الموقف الآني قوة القانون الملزم (22)، وربما كانت خلاصة تجربة الشاعرة ليست وليدة مواقف آنية تستفزها فجأة فتستنفر طاقاتها الفكرية للتعبير عن إحساسها بها في التو واللحظة، ولكنّها خزين الذاكرة، وتاريخ الصراع الطويل الذي عاشت لحقبة مديدة قلق أيامه ولياليه، فأصبحت تسترجع أدقّ تفاصيله وتسكبه في قوالبها الشعرية التي تبث لنا فيها عصارة تجاربها، ولعلّ من الصواب القول أنّ الذاكرة هي موهبة الشعر الطبيعية، لأنّ الخيال نفسه ليس إلاّ ممارسة للذاكرة، فما من شيء تتخيله ممّا لم يسبق الإلمام به، والقدرة على التخيّل هي قدرتنا على تذكّر ما كنّا جرّبناه، فنطبّقه على مواقف أخرى، ولهذا فالشعراء الكبار هم أولئك الذين يمتلكون ذاكرة عظيمة تتجاوز أقوى تجاربهم إلى أدقّ ملاحظاتهم عن الناس والأشياء ممّا يقع بعيدا عن مراكز أنفسهم المستقطبة(23)، وتعمل هذه الذاكرة على إعادة خلق التجربة ومعايشتها، لأن الأفكار والعواطف المختزنة تطفح إلى السطح من أجل إعادة صياغتها وتشكيلها من جديد لتكون بين يدي المتلقي، يعيش فيها وبين أجوائها كما عاش الشاعر حضورها الفعلي والذهني .

ربما لا نجد معاناة أطول من معاناة الخنساء، وكأن كل ديوانها ملحمة ليس لها حدود من اللوعة والهموم، إنه صراع طويل مع الأشجان والدموع جعل من الشاعرة رمزًا للأحزان والآلام التي لا تهدأ، وربما أن الشاعرة أسدلت الستار على أحزانها عندما وصلت إلى حقيقة أخيرة تلخص كل تجربتها مع الموت عنها بصرخة مدوية(24):

لاَ شيءَ يبقى غيرُ وجهِ مليكِنَا   ولستُ أرى شيئًا على الدّهرِ خالدا

ومما لا شك فيه أن هناك تباين واختلاف كبير بين الشعراء في مدى تحسّسهم للمؤثرات الخارجيّة، وما يطرأ على حياتهم من تحوّل أو تغيّر حتى لو كان طفيفًا، فبعضهم يعيش ما يُدعى " بالحالة الشعورية " الدائمة حتّى أنّ كلّ شيء حوله يتحوّل إلى رمز يثير لديه حالة شعورية معيّنة (25)، ومنهم من يحتاج إلى هزّة عنيفة تبعث فيه حالة خاصة في موقف معيّن أو عدّة مواقف مشابهة، فتتأجج فيه مشاعر عارمة تبعثه على قول الشعر، فينفث فيه تلك المشاعر الساخنة التي يمتلئ بها كيانه، وعلى هذه الشاكلة الخنساء، وقد يكون في هذا التعبير المفعم بالحالات الشعورية المتأججة في دواخل شعراء الرثاء عامة والخنساء خاصة ما يدعونا إلى النظر بشيء من الخصوصية إلى ما بناه النقاد القدماء والمحدثون حول قضية التلقي في الأدب العربي، أو العلاقة بين الشفوية الشعرية والسماع ممّا جعل النقد الشعري يتأسس على السماع، يعني مستوى الصلة بين الشعر وسامعه، إذ لم يكن الشاعر الجاهلي – في هذا المنظور – ينشئ الشعر لنفسه بل لغيره، لمن يسمعه لكي يتأثر به، ومن هنا كانت تُقاس شاعرية الشاعر، بقدرته على الابتكار الذي يؤثر في نفس السامع، وهذا ممّا جعل الشاعر مسكونا بهاجس أساسي هو أن يكون ما يقوله مطابقًا لما في نفس السامع، ذلك أنّ مدى فهم السامع لما يقوله هو الذي يحدد مستوى بيانه الشعري، لكن هذا الذي في نفس السامع ليس إلاّ الشيء المشترك العام، وليس فهمه إلاّ انعكاسًا للذوق الشائع العام (26)، وهذا يعني – بالمقابل– أنّ كل ما أرادت أن تعبّر عنه الخنساء من تجاربها الشعرية مع قضية الموت لم تكن تنطلق فيه من معاناتها ومكابداتها الخاصة، بل من معاناة ومكابدات الآخرين، كأنّها أصبحت الوسيلة التي يعبّرون بها جميعا عن

---

(22) د. محمود الجادر، دراسات نقدية في الأدب العربي، مطبعة دار الحكمة للطباعة والنشر، الموصل ،1990، ص151.

(23) د . عبد الجبار المطلبي، مواقف في الأدب والنقد ، ط دار الرشيد للنشر (منشورات وزارة الثقافة والإعلام، سلسلة دراسات رقم (232)، بغداد 1980م، ص 208.

(24) المصدر السابق، ص33.

(25) مواقف في النقد والأدب، ص 196.

(26) أدونيس، علي أحمد سعيد، الشعرية العربية، دار الآداب، بيروت، الطبعة الأولى 1985 م ، ص 22.

الغامض والمعتم في أنفسهم الذي يعجزون عن التعبير عنه، فهل يمكن أن يمثّل هذا نوعًا من التطابق في تجارب الإنسان بحيث تأتي متشابهة أو متماثلة إلى حد بعيد؟ كأنّ المتلقي هو الشاعر، والشاعر هو المرآة التي يرى فيها المتلقي نفسه.

ويرى بعضهم أن دور المتلقي يتجلى في ناحيتين، الأولى: دفع المبدع للنظم أو تذوق الأعمال الشعرية، والثانية: تتمثل في مشاركة المبدع في عملية الإبداع الشعري عن طريق فك مغالق النص وفهمه العميق، ثم سد الفراغات التي أوجدها الشاعر في نصه)(27). ربّما كان من الأجدر أن نقول: إنّ الشاعر لا يمثّل إلاّ نفسه، ولا ينطق إلاّ بتجربته، ولا يعبّر إلاّ عن إحساسه، لأنّه مهما بلغ من القدرة على استشعار معاناة الآخرين وتحسّس آلامهم فإنّه إحساس مؤقت لا يلبث أن يزول بزوال مؤثراته، ويبقى صاحب الجرح وحده يحمل معاناته ويكابد آلام جرحه، وعلى ذلك فإنّه يستحيل إيجاد نوع من التكامل بين الشاعر والمتلقي، وليس كل ما يمر به الشاعر من حالات الشعور التي أثارت فيه عواطفه الكامنة وقدحت لديه زناد قريحته أن تأتي على شيء من التطابق أو التماثل مع الحالات الشعورية التي تثيرها القصيدة في المتلقي بعد سماعها أو قراءتها، لأنّها– في أكثر الأحيان– تمس وترًا حسّاسا في قلب المتلقي لا يُشترط أن يكون هو الوتر ذاته في قلب الشاعر، وربّما صادف مع مرور الزمن أن يكون الشاعر ذاته ذو تجربة أخرى مغايرة فلا يحس بذلك الانتشاء الذي مرّ به حين نظم قصيدته أوّل مرّة، لأنّه غيّر أفكاره، ونسي مشاعره الأولى، وهكذا يعود إلى قصيدته بعد زمن فيجدها لا تمثّل مشاعره الحاليّة ولا تنطق بتجاربه الجديدة (28)، ولا يمكن لشاعر حقيقي (أن يكف عن النظر في مراياه الشعرية، فهي وسيلته للرؤيا ومراجعة الذات، لذلك تمثل لحظات الانعكاس التأمّلي درجات عديدة من الفكر الشعري المبدع، لا تعود كلها إلى الإعجاب بالذات في طقس نرجسي مألوف، بل تحيل في كثير من الأحيان إلى أقصى لحظات التركيز الوجداني لالتقاط تجربة الخلق في انهمارها وانحباسها، في تدفقها وتعثرها (29).

الخنساء و الإسلام:

اتفقت كلمة الرواة على أن السيدة تماضر الخنساء رضي الله عنها كانت صحابية، قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم هي وقومها بنو سليم وأسلمت معهم، بيد أنها لم تدع ما كانت عليه في الجاهلية من تسلبها على أبيها وأخويها، وقد بلغ مِنْ وُجْدها على صخر أنها عميت من البكاء(30). ولما لامتها السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وقالت لها: إن الإسلام قد هدم كل الذي تصنعين أنشأت تقول(31):

يُذَكّرُني طُلُوعُ الشمسِ صَخرًا وأذكرُهُ لكلّ غُروبِ شَمْسِ
لَوْلا كَثْرَةُ الباكينَ حَوْلي على إخوانهم لقتلتُ نفسي
ولكنْ لا أزالُ أرى عجولًا وباكيَةً تَنوحُ لِيَوْمِ نَحْسِ

فقالت عائشة: ما دعاك إلى هذا إلا صنائع منه جميلة، فقالت: نعم، إن لشعري سببًا، وذلك أن زوجي كان رجلاً متلافًا للأموال، يقامر بالقداح، فأتلف فيها ماله حتى بقينا على غير شيء، فأراد أن يسافر، فقلت له: أقم وأنا آتي أخي صخرًا، فأتيته وشكوت إليه حالنا وقلة ذات اليد بنا، فشاطرني ماله، فانطلق زوجي فقامر به، فقمر حتى لم يبق لنا شيء، فعدت إليه في العام المقبل أشكو إليه حالنا، فعاد لي بمثل ذلك فأتلفه زوجي، فلما كان في الثالثة خَلَتْ بصخر امرأتُهُ فعذلته، ثم قالت: إن

(27) محمد ناجح محمد حسن ، الإبداع والتلقي في الشعر الجاهلي، رسالة ماجستير، جامعة النجاح، فلسطين 2003 م ، ص 189.

(28) عبد القادر الرباعي، جماليات المعنى الشعري (التشكيل والتأويل)، مطبعة وزارة الثقافة، عمان، الأردن، ص 193.

(29) د. صلاح فضل، نبرات الخطاب الشعري، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة 1998 م، ص59.

(30) ابن حلكان ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، 6 / 34. بتصرف .

(31)ديوان الخنساء ، ص: 72 .

زوجها مقامر، وهذا ما لا يقوم له شيء، فإن كان لا بُدَّ من صلتها فأعطها أخس مالك، فإنما هو متلف، والخيار فيه والشرار سيان، فأنشأ يقول(32):

والله لا أمنعها خيارها وهي حصان قد كفتني عارها
ولو هلكت قددت خمارها واتخذت من شعر صدارها

ثم شطر ماله فأعطاني أفضل شطريه، فلما هلك اتخذت هذا الصدار، والله لا أخلف ظنه، ولا أكذب قوله ما حييت(33).

لقد كان الإسلام انقلابا هائلاً في حياة النساء والرجال سواء بسواء، وإذا حلا لبعض الناس أن يضرب المثل بعمر بن الخطاب ليبين فضيلة الإسلام عليه فلنا إن نضرب المثل بالخنساء أيضا فالخنساء في الجاهلية لطمت الخدود وشقت الجيوب ودعت بدعوى الجاهلية أما في الإسلام فقد كانت مثالا للصبر علي المصائب والجلد علي المكاره وعندما بلغها استشهاد أبنائها الذين دفعت بهم للجهاد في سبيل الله لم تزد علي أن قالت الحمد لله الذي نسأ لي في أجلي حتي أشهد استشهاد أبنائي ... وهكذا تغيرت النظرة، وانقلبت القيم ولم تعد النظرة الجاهلية البالية هي النظرة المسيطرة المهيمنة الغالبة فالفرعاء بنت طريف عندما ترثي أخاها ترثي وتبكي القيم الإسلامية الجديدة المتمثلة في تقوي الله عز وجل وخشيته .

وكان لابد للإسلام من أن يواصل سيره مع المرأة التي كرمها وأعلى مكانتها، وكانت الخنساء قد مكثت أكثر من أربعين سنة تبكي أخوها صخر، فكانت أحزن نساء العرب على فقيد، غير أن الإسلام اجتث جاهليتها ووجهها إلى رضوان الله وابتغاء مثوبته، يشهد لذلك ما كان من خطبتها في بنيها الأربعة يوم القادسية سنة 16هـ، وذلك أنه لما ضرب البعث على المسلمين لفتح فارس، سارت مع بنيها الأربعة وحضرت الوقعة وأوصت أولادها من أول النهار فقالت: يا بني إنكم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين، والله الذي لا إله إلا هو إنكم لبنو رجل واحد كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم ولا فضحت خالكم، ولا هجنت حسبكم ولا غيرت نسبكم، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية، يقول الله عز وجل {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا}(34)، فإذا أصبحتم غدًا إن شاء الله سالمين فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين، فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها، واضطرمت لظى سياقها، وجللت نارًا على أرواقها، فتيمموا وطيسها، وجالدوا رئيسها، عند احتدام خميسها، تظفروا بالمغنم والكرامة، في دار الخلود والمقامة. فقاتلوا حتى قتلوا رضي الله عنهم ورحمهم أجمعين، فبلغها الخبر، فقالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته(35). ولما بلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذلك، أجرى عليها أرزاق أولادها الأربعة(36)، وكان لكل واحد مائتا درهم، حتى قبض رضي الله عنه، وكانت وفاة الخنساء زمن معاوية بالبادية سنة 50 هجرية 670 ميلادية(37).

(32) أبو عمر شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، ط دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة الأولى، 1404 هـ ، 3 / 223 .
(33) يحيى بن علي بن محمد الشيبانيّ التبريزي، شرح ديوان الحماسة ، ط دار القلم بيروت ، 1/ 454 .
(34) آل عمران: 200 .
(35)صلاح الدين خليل الصفدي ، الوافي في الوفيات، 1/ 1459 .
(36) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني، 13/ 136، بتصرف .
(37)ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص301 ، وما بعدها بتصرف .

خاتمة:

تضمنت أهم النتائج

1. إن الخنساء لم تكن تلك امرأة سعيدة في معظم أطوار حياتها، ولم تكن قد عاشت حياة هانئة لمدة طويلة، لأنّها كانت تحيا حياة كثرت فيها النكبات وتوالت عليها النوائب، وهذا الأمر جعل من ديوانها ملحمة لا حدّ لها من الأحزان والآلام، وخلق منها ناعية كبيرة مقدمة في غرض الرثاء في الشعر العربي ، فلم يكن الغوص في أعماق الشاعرة واستكناه ما في نفسها من حقائق ودوافع، ومحاولة معايشة تجربتها الشعرية مع قضية الخلود والموت بالأمر الهيّن، لأنّ الطريق إلى ذلك الأمر ليس معبّدا، فالفارق الزمني بيننا وبينها كبير جدا، وليس بين أيدينا إلاّ هذا .
2. إن التراث الذي خلّفته لنا نعيش بين كلماته ومعانيه ساعات طوال ينقلنا بأجنحته إلى عوالمها الخاصة، كأنّه يعيد بنا الزمن إلى لحظة نشأته، فنحاول أن نستكشف ما تحت أجنحته من خفايا وأسرار ، ونستخلص منه الدروس والعبر .
3. إن بصيرة الخنساء بصيرتها الثاقبة وروحها الوادعة المسالمة فتحت أمام عينيها سبيل الخلاص من الفزع من تلك القضية الكبرى التي أثارت مخاوف الشاعرة، وخلقت لديها ذلك الصراع النفسي الطويل الذي عانت منه كثيرا، وكان في بداية أمرها ترهب الموت وتخشى على أهلها وأحبتها ذلك المصير المجهول، فتحول الموت . في نظرها . من واقع مرير مؤلم إلى مصدر إلهام وتفكر وتدبر في الحياة الدنيا والآخرة .
4. إن في كل بيت تجد روحها هائمة غير مستقرة، يبرز فيها طابع الحزن وتختفي منها نغمة الفرح، وتنطوي تحت معانيها جُمل كثيرة من التوتّر والقلق، وكلها تشير إلى معاناتها وخوفها ممّا هو مخبوء لها، فأبيات الشاعرة مفعمة بما يدل على نفسيتها، وتتمثل شاعريتها في تصويرها الدقيق لما يجتاح كيانها من هموم وآلام، وإعادة خلق تجربتها الشعورية وصياغتها في قصائد تحيل المتلقي إلى عوالم لا متناهية من الأشجان .
5. لقد وجدت الخنساء في الشعر منفذا كبيرا للخروج من عذاباتها النفسية، فراحت تنفث فيه همومها وكربها، وقد اتسمت أشعارها بكثير من القيم الروحية التي تلائم نفسيتها المهذبة، وهي قيم تنطق بحقيقتها وترسم لنا صورتها، امرأة عركتها السنون وصقلتها التجارب، فكثرت في شعرها أبيات التأمل والحكمة، فكشفت لنا عن مثالية مميزة في تحويلها رؤياها الذاتية المتعلقة بقضيتها مع الموت إلى مادة شاملة وقضية عامة تصور معاناة وهموم كل البشر ، وفي ذلك تحقيق لنتائج تجربته الخاصة .
6. وأخيرا فإنّ تجربة الشعر عند الخنساء وما صاحبها من صراع نفسي تجعلنا ننظر إليها بشيء من الخصوصيّة بعيدا عن قضية التلقي في النقد العربي، لأنّ هذه القضية ركّزت على اهتمام الشاعر بالمتلقي، وسعيه الدؤوب في إرضاء أذواق مستمعيه، وبذلك تُقاس شاعريته، وهذا يناقض ما وجدناه من سعي الخنساء في التعبير عن تجربتها، وما يدور ويضطرب في نفسها من صراعات، لأنّها إذا اهتمّت بالمتلقي فقدت اهتمامها بذاتها، فتهدأ نفسها ويزول منها ذلك الصراع الذي يؤجج شاعريتها .

المصادر :

- ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة ، تحقيق: علي محمد البجاوي، ط دار الجيل – بيروت ، الطبعة: الأولى، 1412هـ ، 7 / 614 .
- أبو علي الحسن بن عبد الله القيسي، إيضاح شواهد الإيضاح ، تحقيق: الدكتور محمد بن حمود الدعجاني ، ط دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى، 1408 هـ – 1987 م، 2/ 785 .

- أبو عمر شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، ط دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة الأولى، 1404 هـ ، 3 / 223 .
- أدونيس، علي أحمد سعيد، الشعرية العربية، دار الآداب، بيروت، الطبعة الأولى 1985 م ، ص 22.
- انظر : ابن عبد البر ، الاستيعاب في معرفة الأصحاب 4 / 1838 ، وعبد القادر بن عمر البغدادي ، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، 1 / 395 . بتصرف .
- حسن سعد لطيف، تجربة الموت في شعر الخنساء بين الواقع والمثال ، ط مجلة آداب ذي قار ، الطبعة: العدد 3 ، سنة النشر: 2011م ، ص: 75 .
- د . عبد الجبار المطلبي، مواقف في الأدب والنقد ، ط دار الرشيد للنشر (منشورات وزارة الثقافة والإعلام، سلسلة دراسات رقم (232)، بغداد 1980م، ص 208.
- د. صلاح فضل، نبرات الخطاب الشعري، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة 1998 م، ص59.
- د. محمود الجادر، دراسات نقدية في الأدب العربي، مطبعة دار الحكمة للطباعة والنشر، الموصل ،1990، ص151.
- الدكتور يحيى الجبوري، الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه في بيان أنواع الرثاء وأساليبه ، انظر ص ٣١١ وما بعدها.
- السيوطي، شرح شواهد المغني ، تحقيق: أحمد ظافر كوجان ، مذيل بتعليقات: الشيخ محمد محمود ابن التلاميد التركزي الشنقيطي، ط لجنة التراث العربي ، 1386 هـ – 1966 م ، 1 / 255 .
- عباس المناصرة، مقدّمة في نظرية الشعر الإسلامي، مؤسسة الرسالة، دار النشر، الأردن 1996 م، ص 149.
- عبد القادر الرباعي، جماليات المعنى الشعري (التشكيل والتأويل)، مطبعة وزارة الثقافة، عمان، الأردن، ص 193.
- عبد القادر بن عمر البغدادي، شرح أبيات مغني اللبيب، تحقيق: عبد العزيز رباح – أحمد يوسف دقاق، ط دار المأمون للتراث، بيروت الطبعة الثانية، 2 / 193 .
- عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، الشعر والشعراء، تحقيق: د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1401 هـ ، 1981 م.
- محمد ناجح محمد حسن ، الإبداع والتلقي في الشعر الجاهلي، رسالة ماجستير، جامعة النجاح، فلسطين 2003 م ، ص 189.
- يحيى بن علي بن محمد الشيبانيّ التبريزي، شرح ديوان الحماسة ، ط دار القلم بيروت ، 1/ 454 .